في بلاد لينين

الحكم على كشاف!

للكاتب الروسى الشهير «بانتليمون رومانوف»
PANTELEIMON ROMANOV
تعريب : إيزاك موسى شموش

« لعل الأدب الروسى أقرب الآداب إلى البساطة ، وألصقها بالحياة ؛ فهو مثال صادق لما تزخر به النفس البشرية من عواطف وميول ، وصورة طبق الأصل لما يجرى لك ولى ، ولجميع الناس فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ...

وإليك نموذجاً من هذا الأدب الحى ، الذى بلغ من الكمال غاية ما بعدها غاية ... إليك قصة بسيطة ، لحادث بسيط ، يقوم له الكشافون ويقعدون، وأين!؟... فى روسيا بلاد الحب، والاباحية، والحرية المطلقة !!!

وإذا علمت أن الأدب الروسى من أرقى الآداب الحية ، وأن واضع هذه الأقصوصة (بانتليمون رومانوف) من كتاب الطبقة الأولى فيه ، وأن « الحكم على كشاف » من أجل ما كتب ، علمت أى أثر ننقله إلى قراء العربية »

(المعرب)

اكتشفت فرقة الكشافة ، فى إحدى قرى الملحقات اكتشافا مروعا: الشاب (اندريه تشوكونوف)، يسعى فى إفساد أخلاق إحدى رفيقاته (ماريا كولوبيف) فتولى المحققون البحث عن الجانى، لتطهير المجتمع من العناصر الفاسدة التى تسربت إليه من حيث لا يشعر. وكان الشعب يذهب فى نقد أخلاق الشبيبة مذهبا يتدرج من الشديد إلى الأشد ، حتى انه لم يتردد فى الحكم على الناشئة ، بأنها أخذت تتدهور فى مهاوى الفساد ، بحيث أصبحت لا تعرف كيف تميز بين الخير والشر ؛ والحقيقة التى لا مراء فيها، أن هذا النقد يرمى الشبيبة بالجحود والالحاد ، والتمرد على الدين !!!

وقرر الكشافون، فى اجتماع عام عقدوه ، أن يتخذوا جميع التدابير اللازمة ، وإن بلغت منتهى القسوة والصرامة، لردع اندريه تشوكونوف وأمثاله عن هذه المفاسد ؛ ولا غرو

فالشاة الجرباء تعدى القطيع بأجمعه ... ولهذا بثوا العيون والأرصاد لمراقبة تشوكونوف مراقبة سرية دقيقة ، ومما زاد فى فظاعة جرمه ، أن ماريا فلاحة ، تقطن فى ضاحية لا تبعد عن القرية أكثر من كيلومتر واحد ، وما الذى يعتقده الفلاحون فى فرقة الكشافة إذا بلغهم هذا الحادث ؟ ؟ ...

وقد تحقق لديهم أنه كثيراً ما كان يتنزه برفقتها فى حديقة القرية ، ويرافقها إلى دارها بعد مضى شطر كبير من الليل ...

بدأ التحقيق يوم الخميس مساء ... وكان اندريه وماريا يتأخران عادة وفى مثل هذا اليوم من كل أسبوع ، فى ردهة النادى ... إذن فقد كان محتملا أن يرافقها عند عودتها إلى منزلها.. وفى هذا اليوم بلغ حماس الكشافين أقصاه حتى انهم لم يرفعوا أبصارهم عن اندريه وصديقته، وكان اندريه فى الخامسة عشرة ، لا يرى إلا وسترته على كتفه، وشعره الأشعث الجاف قد تشعث بصورة لا تلتزم جانباً واحداً من رأسه، بل تسترسل إلى جميع الجهات ، حتى إذا تضايق منها ، سرحها إلى الوراء بمشط صغير كان لا يفارق جيبه أبدا ؛ وكانت تغشى وجهه سحابة من الشحوب دائما ، وكانت البثور المنتثرة فيه ، تزداد يوماً فيوما . . . وكان يميل إلى الوحدة والانفراد ، ولا يرى إلا منزويا فى طرف من أطراف الفناء ، يواظب على دروسه وهو يذرع الساحة بقدميه طولا وعرضاً.

أما ماريا فانها تبدو أكثر طهارة ، وأجلى براءة : هى فتاة هادئة ، مفكرة ، لما تتجاوز الربيع السادس عشر من حياتها ، وكانت تربط شعرها برباط احمر ، وتلتفح (بلفعة) حمراء . . . إلا أنها بدلا من وضع مشط فى شعرها ، كانت تهز رأسها إلى الجهات الاربع ، لتصلح ما تشعث منه ، حتى إذا أعياها جمع تلك الشعور التى عبثت بها شفار المقص ، استعانت على ذلك بمشط ذى انحناء .

* * *

وفى مساء هذا الخميس ، بعد انتهاء العمل ، تصنع اثنان من الكشافة (عهد اليهما بالتحقيق) البحث عن قبعتيهما ، منتظرين خروج تشوكونوف وماريا ؛ إلا أن الفرقة بأسرها ، كانت على أشد ما تكون من الرغبة ، للوقوف على ما يتناوله التحقيق ، فراحت جموعهم تتدافع أمام المدخل ، هامسة متسارة ، واشرأبت الأعناق تحاول أن تتطلع إلى البهو ، لترى ما يجرى فيه ... وفجأة ، أتى أحدهم بحركة تفيد « أنهما» يتأهبان للخروج ، فهرب الجميع مسرعين ، وأخذوا يتسابقون إلى الشارع تاركين الباب بين مفتوح ومغلق ... ليشاهدوا عن بعد ، ما يحدث فى ذلك المدخل ...

وظهر اندريه وماريا على عتبة الباب... وفى ذلك الظلام الشائب ، أبصروا اندريه يتقدم إلى الجسر الخشبى الملقى على طرف النهر ، ويمد يده ليساعد ماريا على اجتيازه ، فتمكنه من كتفها ، وتتكىء عليه ...

فزرر المحققان سترتيهما اللتين كان الهواء يتلاعب بهما ، وأخذا يشيعان هذين الشبحين المتباعدين بأبصارهما .

أما الكشافون ، فقد أثر فيهم هذا الجو المشبع بأنفاس التآمر والدس، ولم يشعروا بحاجة إلى الرقاد ،لأنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودة المحققين ، ليقفوا منهما على نتيجة التحقيق.

جلس الشبان والشابات حول الطاولة ، وشرعوا يتجاذبون اطراف الحديث بصوت خافت، ويعمدون إلى الصمت كلما مر الرئيس بقربهم ، إذ لم يكن بينهم من يرغب فى اطلاعه على ما شاهدوه بأعينهم ؛ قبل أن ينتهى البحث ويتم التحقيق .

وفى الساعة الحادية عشر ... عاد المحققان فهرع اليهما الكشافون، وتقدمت اليهما جموعهم متسائلة : هل تحققت الظنون ؟؟

أما المحققان فقد انتبذا أحد اطراف الطاولة،وطفقا يلتهمان طعامهما صامتين !!!

وقد صرحا ، أنهما لن يقولا شيئاً قبيل يوم المحاكمة .

***

هنا صرخ أحد الرفاق طالبا العدل انتهيتما من تمثيل دور « الأحمق » ؟

فقال نيقولا كوشوكونوف أحد زعماء الفرقة : كلا أيها الرفاق! لهما كل الحق فى التزام جانب الصمت ،إذ ماداما قد عينا رسميا، يتحتم عليهما التكتم، وليس بمستحسن أن يجيبا كلا منا على سيل اسئلته الجارف !

خفتت الاصوات ، والتف الكشافون فى حلقة حول المحققين ، بينما كانا يزدردان الطعام بجشع وشهية . . . وراحوا ينتظرون بصبر فارغ قرار المحكمة التى ستلتئم يوم الاحد المقبل ، للنظر فى دعوى اندرية .

ومنذ الفجر هاج النادى ، هياج الخلية إذا أخذ منها العسل ، وإذا الكشافون تتدفق جموعهم ، وتتدافع فى كل جهة ، بدون عقل ، وبلا إدراك، يكاد يلتهمهم التأثر ويفقدهم صوابهم.

تناولوا الشاى جميعاً بسرعة ، ومن ثم راحوا يتسابقون إلى غرف النوم ليشرفوا منها على قاعة المحكمة .

ولما نودى على تشوكونوف — وهو لا يعرف ما يراد به — تطاولت اليه الاعناق ، واتجهت إليه الابصار، وكان رئيس المحكمة قد جلس وسائر الاعضاء إلى طاولة فى وسط القاعة .

نادى رئيس المحكمة : تشوكونوف ! فانتصب على رجليه واقفا ، من حيث لا يشعر ، إلا أنه لم يلبث أن أحس بحمرة الخجل تلهب وجهه ، عندما جذبه رفيقه الجالس إلى يمينه ، من كمه ، ليجلسه ...

— الكشاف اندريه تشوكونوف متهم بافساد أخلاق رفيقته فى الفرقة : ماريا كولوبيف .

فصرخ اندرية ووثب على مقعده وهو يقول: ماذا ؟ ثم راح يدير الطرف حوله ، ويهز كتفيه ، فقاطعه الرئيس باشارة من يده قائلا :

— سنسمع بعد برهة قصيرة ، كل ماتقدمه لنا من الادلة لتبرير موقفك! والتفت الرئيس إلى جهة النافذة ، حيث كان اللغط يشتد ، وترتفع جلبة الاحاديث الخاصة ، وصرخ بصوت مرتفع:

— أيها الرفاق! أطلب إليكم السكوت !

وكان تشوكونوف لايبرح جالساً وسترته على كتفه ، ويشاهد ما يجرى ويسمع مايقال ، ولكن ماذا يعنيه كل ذلك وأى علاقة له به ؟

قال الرئيس : اضطرتنا ملاحظات بعض الرفاق للتحقيق فى هذه القضية ، وقد جاءت المعلومات المستقاة تؤيد بصورة جازمة تلكم الملاحظات الفردية . . . والآن اسمحوا لى أن أسأل الرفيق تشوكونوف.

وشد الرئيس شعره براحة كفه ، وأخذ يفكر فى الاسئلة التى سيطرحها ثم قال :

— ولكن، كلا !...سأقرأ لكم فى بادىء الامر ما يتضمنه هذا التقرير الذى رفعه الرفيقان اللذان عينتهما الفرقة لمراقبة اعمال تشوكونوف ، إليكم نصه :

« فى الساعة العاشرة ، بعد اجتماع النادى ، ذهب الرفاق ليرتدوا معاطفهم وقبعاتهم ، فتصنعنا البحث عن قبعاتنا ، لنراقب عن كثب كل شىء ...

خرج تشوكونوف وماريا ، ولما همت بارتداء معطفها ، حمل لها جزدانها والحقيبة التى كانت تحملها لدارها ، وكانت مملوءة دقيقاً اشترته من الكوبيراتيف ...

رافقها إلى شمال المدرسة، ولما اجتازا الساقية ، مد لها ذراعه فاتكأت عليه كما تتكىء الفتيات ، وطفقت تجتاز الاخشاب التى تكاد تشبه الجسر ... واستأنفا سيرهما ، ولم نستطع أن نقترب منهما اكثر من ذلك ، خشية أن يشعرا بنا ، ولهذا لم نتمكن من استراق ما كان يدور بينهما من الحديث ، إلا أنا نكاد نكون على يقين ، أنهما كانا يتحدثان عن الشعر، ولسنا ندرى إذا كان يحدثها عن شعره هو ، أم ينشدها لشعراء معروفين ... وحمل لها حقيبتها ، وتواريا عن انظارنا بين اشجار الغاب المتكاثف ، مدة ليست باليسيرة ، وتعذرت علينا مراقبتهما ، لاسيما وأن الظلام كان حالكا .. وبعد ذلك أبصرناها تستأنف سيرها وحدها ، ورأيناه يعود دون أن يشعر بنا ، ونحن بين الاعشاب مختبئون ! »

— أرأيتم أيها الرفاق ؟ القضية واضحة ! نحن هنا بصدد سيرة لا أخال الكشافة ستحمد عليها !!!

والتفت الرئيس إلى تشوكونوف قائلا :

— أتعترف بما جاء فى التقرير ؟ فقال تشوكونوف :

— بماذا تريدون أن أعترف ؟

— بما قرىء الآن ! هل جرى ماذكر على الصورة المبينة ؟

— أجل!على هذه الصورة تماما !!

— إذن أنت ساعدتها على اجتياز الساقية ، وحملت لها جزدانها ؟؟

— وحقيبتها ايضاً ؟

— وأنشدتها أبياتا لست أدرى لمن؟

فأجاب تشوكونوف وقد احمرت وجنتاه : هذا أمر لايعنى أحداً غيرى !

— كلا ! بل هذا امر يخص غيرك أيضاً ، لأنه يمس كرامة الفرقة بأسرها... فاذا كنت تقرض الشعر ، ولا تنشده للفرقة ، بل تنشده «لسيدتك» فهذا أمر ياصديقى لايخصك وحدك.. إذ لو شرعنا جميعاً ننظم الشعر ، وننتزع اللفعات التى تقع إلى الارض (وهذا مافعلته انت) لا نكون أعددنا للمستقبل الفرقة العسكرية ، التى نريدها للقيام بالثورة ، وإعلان مبادئها... ليس هذا امراً يعنيك وحدك ، لأنك تفسد أخلاق رفيقة لنا !!!

علينا أن نعد للغد : جنودا بواسل ، مدربين ، متساويين فى الحقوق، أما انت فانك تحمل لها حقيبتها ، بدلا من أن تحملها هى بنفسها ! وتساعدها على عبور الساقية ، وتنشدها الاشعار ... حتى أنا منذ زمن غير يسير ، صرنا نسمع الناس يتسارون بقولهم : تمكن أبناء صغار التجار من الانخراط فى سلك الكشافة !!!

فصرخ تشوكونوف وقد أحفظته تلك الوصمة الشائنة : لست ابن تاجر صغير ! فأبى عامل ميكانيكى!!!

وراح الرئيس يمرر يده على شعره ، وهو يتفرس فى وجه تشوكونوف ، وبعد لأى ابتدره قائلا :

— وهذا مايزيد عملك فساداً على فساد ، وعاراً على عار ... وبدلا من أن تسعى لتبرير موقفك ، قدمت لنا حجة جديدة ، عليك... لانك ابن عامل ميكانيكى شريف «يحب» إحدى رفيقاته فى الفرقة ؟؟؟

لئن كنت تريدها لاشباع شهواتك البهيمية ، فقد كان حقا عليك أن تصرح لها بذلك، بطريقة شريفة كرفيق لها ، لا أن تسعى لاغوائها برفع لفعتها الساقطة ، وحمل حقيبتها عنها ...!!

قال تشوكونوف ، وقد ألهب الغيظ جسمه : لست اريدها لاشباع مطامعى الجسدية !ولئن رضيت كل شىء ، فانى لا أرضى، ولاأرضى، ولا أسمح لأحد أن يهين ...

فقاطعه أحد المحلفين بقوله :

ـ إذن كنت تريدها ، من أجل أى شيء ؟

ـ من اجل أى شيء ؟! وهل أعرف انا ذلك ؟ لا أريدها لشيء ... بل لأتحدث معها ...

ـ ولأجل ذلك هجرت جميع الرفاق ، ورحت تبغى الانفراد عنهم ؟

ـ انى لم انفرد عن الرفاق ، وانما أرغب أن أكون معها وحدى .

ـ بامكانك ان تختلى بها لاشباع شهواتك البشرية ، فانهذا أمر يعنيك وحدك ، لأنك لا تقطعها من الفرقة على هذه الصورة ، ولكنك رحت تنمى فيها ميل ...

فأجاب تشوكونوف باحمرار زائد : ولكن .. إذا رغبت فى اطلاعى على دخيلة امرها ، وبثى شكواها ... وإذا كانت ترتاح إلى فتح قلبها لى ؟

ـ ماذا ! هل اصبحت مستودعا للاسرار ؟

ـ كلا لست مستودعا للاسرار ، ولكن ماريا يسرها أن تكاشفنى بمكنونات صدرها ، وأنا لا أستطيع إلا أن اجنح لذلك بشيء من الشفقة والتأثر ، ومنذ ذلك الوقت ...

ـ الصديقة المخلصة ، لا تتبا كى امام احد ، وإذا كان ماتتذمر منه يستحق الذكر ، فعليها أن تسره إلى الفرقة .. أوليس يجمل بكما أن يكون أحدكما كزوج للآخر؟ اذ لو أجيز ذلك ، فاى ضرورة تبقى لتأليف الفرق ... اذهبوا اذن جميعكم وابحثوا لكم عن « حبيبات »

وهنا ضحك الجميع!

ـ ايها الرفاق! الوقائع واضحة جلية ، لاإبهام فيها ! والتهمة ثبتت أدق دقائقها : إن الرفيق تشوكونوف يتكلم بلسان لانعرفه ، ولهذا يتعذر علينا أن نتفاهم معه ، ان لم يك هذا التفاهم مستحيلا ! ومما يزيدنا أسفا أيها الرفاق أنه مثلنا ، ابن عامل ، وانه فى الوقت ذاته ، عنصر من العناصر العاملة لافساد الاخلاق ، بينا الواجب يحتم عليه ، ان يكون مقاتلا ، وعضواً عاملا ، ومثالا يحتذى فى الفرقة ؛ والآن أطرح عليكم الأسئلة الاربعة التالية :

١ ـ هل ثبت لكم ، ان الكشاف تشوكونوف (من الفرقة الثانية) أفسد أخلاق رفيقته ماريا إفساداً تاماً ؟

٢ ـ هل ترتأون طرده من فرقة الكشافين ؟

٣ ـ هل تعد ماريا كولوبيف شريكته فى الجرم ؟

٤ ـ هل تستحسنون طردها أيضا ؟

عندئذ تفرقت الاصوات وتوزعت... إلا أن الأكثرية أجمعت على طلب التشديد فى الحكم، لردع المفسدين عن أعمالهم وقمع الفساد ، وإلا فانهم بدلا من أن يكونوا أعدوا جنودا بواسل لاعلان الثورة وتنشيطها، يكونون أعدوا أزواجا يتراسلون بالمقطوعات الشعرية العذبة، ويتجاذبون أطراف الأحاديث الشهية ، وهكذا فان « الحب » يصير أشبه شيء (بالدين) أى أنه يصبح آلة قوية

لاضعاف العقل، وتثبيط الهمم، وإشغال الرفاق عن الثورة التي انضووا تحت لوائها... يحق لأحرار أبناء نبجان أن يفكروا في الحب، وأن يقرضوا الشعر! أما نحن فلا، لأن حاجاتنا الطبيعية تكفينا! ولا شباعها لا نذهب إلى بائعات اللذة، ولا نرتمي في أحضان بنات الهوى، لأن لنا رفيقات!!!

وأجابت الاقلية، بأنهم إذا أخذوا بهذه الاراء، استأصلوا العواطف البشرية من شأفتها؛ وقضوا عليها القضاء المبرم، وزاد بعضهم على ذلك، أن لهم نفوسا، تتطلب ...

وإذا بأصوات الهزء والسخرية ترتفع وترتفع عاليا ومن بينها صوت يقول:

— أسمعهم يتحدثون عن النفس البشرية الآن!!! إنه لموضوع جليل! يالهم من أناس! قل لي أي «مشكا» هل لك أنت نفسي؟

قال مشكا: إن نفوسهم لتتطلب الشعر!!

— يالهم من صعاليك، يالهم من «أوباش»!!

— لخير لنا الف مرة أن نكون «أوباشا» من أن نكون عشاقا مدلهين!

فانتهرهم الرئيس باشارة من يده قائلا: سكوتا أيها الرفاق! وبعد أن انحنى إلى رفيقه الجالس إلى يمينه ليسمع ما كان يسره إليه من بعض القول، زاد على ماتقدم:

فلنصوت بهدوء ونظام!

***

فأجابت الاكثرية على السؤال الاول بالايجاب، وعارضت أقلية ضئيلة قضية الطرد .. وأما إجرام ماريا فقد أيدته الاغلبية ... ولكن الاصوات أجمعت على إبقائها في الفرقة (!) على شريطة أن لاتدنس في المستقبل راية الكشافة!!!

فنزع تشوكونوف عقدة رقبته (كرافتته) الحمراء، وهي علامة الكشافين ثم وضعها على الطاولة، وخرج من القاعة، وستر ته ملقاة على اكتافه، فنهض على الأثر عشرة كشافين من مقاعدهم، وصرخوا في وجه الحضور: «يالكم من أنذال! يالكم من أوباش!» وأسرعوا في اللحاق بتشوكونوف.

وأخذ الرئيس عقدة الرقبة الحمراء، ورمى بها في علبة الاقذار ثم قال:

— لقد ذهبوا فالى حيث ...

حلب ايزاك موسى شموش